الحلقة (٣٨)

فالحديث موصول عما كنت أتحدث عنه، متى تقبل العبادة، أو شروط قبول العمل، وذكرت أن للعمل شرطان مهمان إذا توفرا فإنه يقبل، وإذا تخلف أحدهما فإن العمل لا يقبل، ألا وهما الإخلاص لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

← فما أهمية هذان الشرطان ؟

مما يدل على أهمية الإخلاص والمتابعة الذين هما شرطي قبول العبادة، أن الله أمر بإخلاص العبادة له يقول الله تعالى: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين}، وأن الله اختص نفسه بالتشريع فهو حقه وحده ومن تعبد الله بغير ما شرع فقد شارك الله عز وجل في تشريعه، يقول جل وعلا: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك}ويقول تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه} الله سبحانه وتعالى أنكر على من يشرّع من عند نفسه يقول تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} والله سبحانه وتعالى أكمل لنا الدين ورضيه لنا يقول الباري جل وعلا: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فالابتداع في الدين إنما هو في الحقيقة استدراك على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، واتهام للدين بالنقص، ثم إنه لو جاز للناس أن يتعبدوا الله بما شاءوا كيفما شاءوا لأصبح لكل إنسان طريقته الخاصة بالعبادة، و لأصبحت حياة الناس جحيما لا يطاق، إذ يسود التناحر والتنافر لاختلاف الأذواق مما يؤدي إلى الشقاق والافتراق.

و اتباع الشرع وترك الابتداع أعظم سبب للائتلاف والاجتماع، ثم إنه لو جاز للناس أن يعبدوا الله بما شاءوا كيفما شاءوا لترتب على ذلك عدم حاجة الناس إلى الرسل ولا يقول بهذا عاقل.

- **العبادة لها أركان وركنا العبادة:**

الحب والتعظيم وجعلها بعض أهل العلم أربعة أركان: **١ /الحب ٢ /والتعظيم ٣ /والخوف ٤ /والرجاء،** ولا تعارض بين الأمرين، فإن الرجاء ينشأ من الحب فلا يرجو الإنسان إلا من يحب، وكذلك الخوف ينشأ من التعظيم فلا يخاف الإنسان إلا من عظيم، وقد أثنى الله على أهل الخوف والرجاء من النبيين والمرسلين فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِين} ومدح القائمين بها من سائر عباده فقال: {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} ويقول الله: {يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه} ويقول سبحانه: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون}.

كما أمر عز وجل باستحضار ذلك و قصده فقال: : {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} هذه عبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله المؤمنين، فمن ذا الذي هو أحسن منهم وأكمل من هديهم، وهل تقبل دعواه؟

الجواب: لا، فالخوف والرجاء متلازمان فكلاهما يريد الفوز بالجنة والنجاة من النار، فلو سألت من لا يزني من المؤمنين مثلا مع قدرته عليه: لم لا تزني؟ لبادر بقوله إني أخاف الله وأرجو ثوابه، ولو سألت المصلي: لم تصلي؟ لقال خوفا من الله وطمعا في ثوابه، وهكذا، فغير الله قد يحب لكن لا يخاف منه، وقد يخاف منه ولكن لا يحب، أما الله عز وجل فيجتمع الأمران في حقه فيخاف ويحب، فلا بد للمؤمن إذن من الجمع بين الحب والخوف والرجاء والتعظيم.

أما العبادة بالحب وحده فلا تكفي، وليست صحيحة، لأنها لا تتضمن تعظيما لله، ولا خشية منه، إذ أن صاحبها يجعل الله سبحانه وتعالى بمنزلة الوالد والصديق، فلا يتورع من اقتراف المحرمات بل يستهين بها بحجة أن الحبيب لا يعذب حبيبه، كما قالت **اليهود والنصارى**: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} وكما يقول **غلاة الصوفية** نحن نعبد الله لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه، إنما نعبد الله حبا له، كما عبر بذلك كثير منهم، فرابعة العدوية تقول:

أحبك حبين حب الهوى***وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى***فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنـت أهل له***فكشفك لي الحجب حتى أراك

وكما قال ابن العربي:

أدين بدين الحب أنا توجهت***ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهذه الطريقة لها آثار وخيمة منها **الأمن من مكر الله، وغايته الخروج من الملة،** فالذي يتمادى في التفريط والخطايا ويرجو رحمة الله بلا عمل، يقع في الغرور والأماني الباطلة والرجاء الكاذب.

كذلك العبادة بالخوف وحده دون الحب والرجاء ليست صحيحة بل هي باطلة فاسدة، وهي طريقة الخوارج الذين **لا يجعلون تعبدهم لله مقرونا بالمحبة،** فلا يجدون للعبادة لذة ولا إليها رغبة، **فتكون منزلة الخالق عندهم كمنزلة سلطان جائر أو ملك ظالم، وهذا مما يورث اليأس أو القنوط من رحمة الله، وغايته الكفر بالله وإساءة الظن به،** يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني**)، وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته بثلاث: (**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**) رواه مسلم.

وحسن الظن هو الباعث على العمل، الذي يلزم منه تحري الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والإثابة عند العمل، أما ظن المغفرة والإجابة والإثابة مع الإصرار على الذنوب والتقصير في العمل فليس من حسن الظن في شيء، بل هو سفه وجهل وغرور، فلا بد للعابد أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، وكل أحد إذا خفته

هربت منه إلا الله سبحانه وتعالى فإنك إذا خفته فررت إليه، فالخائف من الله هارب إليه، يقول الله تعالى:{ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} وهناك مقولة مشهورة عند السلف وهي قولهم: "من عبد الله **بالحب** وحده فهو **زنديق**، ومن عبده **بالخوف** وحده فهو **حروري**، ومن عبده **بالرجاء** وحده فهو **مرجي**، ومن عبده **بالخوف والرجاء والحب** فهو **مؤمن موحد**"، إذن حب وخوف ورجاء هذه هي طريقة الموحد.

إذا قلنا أيهما يغلب الرجاء أو الخوف فالجواب أنه اختلف في ذلك على أقوال:

١- ينبغي الإنسان أن يغلّب جانب الخوف ليحمله على فعل الطاعة وترك المعصية.

٢- أن يغلب جانب الرجاء ليكون متفائلا والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل.

٣- أنه في فعل الطاعة يغلب الرجاء لينبعث إلى العمل، فالذي منَّ عليه بالطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: "إذا وفقك الله للدعاء فانتظر الإجابة لأنه يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}" وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف لأجل أن يمنعك ذلك من فعل المعصية يقول الله تبارك وتعالى {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهذا قريب، ولكن ليس بالقرب الكامل، إذ قد يعترض عليه بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَة.}

٤- أنه يغلب جانب الخوف في الصحة وجانب الرجاء في المرض.

٥- وقيل الخوف والرجاء كجناحي الطائر، فالمؤمن يسير إلى الله بجناحين، هما الرجاء والخوف، فإذا استويا تم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت لا يستطيع الطيران، والمحبة كالرأس للطائر.

٦- وقيل يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال والله أعلم.

الخوف الواجب والخوف المستحب:

الخوف الواجب: هو ما يحملك على فعل الواجبات وترك المحرمات.

والخوف المستحب :هو ما يحملك على فعل المستحبات وترك المكروهات.

أنواع العبادة:

١- **قوليّ**: كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

٢- **فعليّ**: كالجهاد في سبيل الله وإماطة الأذى عن الطريق.

٣- **قلبيّ**: الحياء والمحبة والخوف والرجاء وغيرها.

٤- **مشترك**: كالصلاة مثلا فإنها تجمع ذلك كله.

ومن أنواعها أيضا الزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للمنافقين والكفار، والإحسان إلى الحيوان والأيتام والمساكين وابن السبيل، والدعاء، والذكر، وكذلك الذبح، والنذر، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستعانة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار، كل هذه عبادات لا يجوز صرفها إلا لله ومن

صرفها لغيره فقد أشرك.

تنقسم عبودية الخلق لله سبحانه إلى ثلاثة:

١- عبودية عامة: **يشترك فيها كافة الخلق** برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، يقول الله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } فهذه **عبودية الربوبية** فالخلق كلهم عبيد لله مربوبون له.

٢- عبودية خاصة: وهي **عبودية الألوهية** وهي **عبودية عباد الله الصالحين**، وهم كل من تعبد الله بشرعه، وأخلص في عبادته، يقول الله تعالى: **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}** ولهذا أضافهم إلى اسمه إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته **وهذه إضافة تشريف.**

٣-عبودية خاصة الخاصة: وهي أيضا **عبودية الألوهية** وهي **للأنبياء والمرسلين** الذين لا يباريهم ولا يدانيهم أحد في عبادتهم لله، قال تعالى : {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ} وقال عن نوح عليه السلام: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} وقال عن داود عليه السلام: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} وقال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِيَدْعُوه}.

❖ **توحيد الألوهية له فضائل منها:**

١- **أنه أعظم نعمة أنعمها الله على عباده** حيث هداهم إليه، كما جاء في سورة النحل التي تسمى سورة النعم، فالله عز وجل قد قدم نعمة التوحيد على كل نعمة فقال في أول السورة: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُون}.

٢- **أنه الغاية من خلق الجن والإنس** يقول الباري جل وعلا: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون}.

٣- **أنه الغاية من إنزال الكتب** ومنها القرآن يقول، تعالى فيه: {الر* كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَإِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}.

٤- **أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة** ودفع عقوباتهما كما في قصة يونس عليه السلام.

٥- **أنه يمتنع من الخلود في النار من حقق توحيد الألوهية** إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة من خردل، حتى ولو عذب فإنه لا يخلد في النار.

٦- **أنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية** كما في حديث عتبان في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

٧- **حصول الاهتداء بالكامل، والأمن التام لأهله في الدنيا والآخرة** قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون}.**

٨- **أنه السبب الأعظم لنيل رضا الله وثوابه.**

٩- **أن أسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه.**

١٠- **أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد**، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

١١- **أنه يُسَّهل على العبد فعل الخيرات وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات** فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجوه من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وأليم عقابه.

١٢- **أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين** كما جاء ذلك في القرآن الكريم.

١٣- **أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام** فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

١٤- **أنه يحرر العبد من رق المخلوقين ومن التعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم**، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.